مدينة تبحث عن ميناء

وفى براعة نادرة استطاع الطيار السويدى أن يضع الطائرة اليمنية على أرض المطار فى الحديدة ثغر اليمن الوحيد على البحر الاحمر وأهم منفذ لتجارتها فى جميع العصور .. وان كانت البواخر قد كفت منذ زمن بعيد عن الوقوف فيه .. اذ أن للموانىء عادة قبيحة هى احتياجها دائما الى تطهير وتنظيف مستمر ولما كانت هذه العادة قد بطلت فى اليمن منذ خمسين عاما على الاقل فقد انسد الميناء وتبعثرت بقايا أحجاره .. وصبح على السفن الراغبة فى البن أن تقف بعيدا بحوالى نصف كيلو ويسعى رجال أشداء يحملون الاكياس على ظهورهم ويخوضون فى المياه الضحلة الى البواخر التى تنقله الى أسواق العالم حيث يخلط بكافة أنواع الحبوب السمراء ويقدم كفنجان من البن اليمنى النقى ! والحديدة قد ظهرت على خريطة الدنيا كميناء وسكنها الناس على هذا الاساس ولكنها فقدت هذا الميناء .

ولنعد الى المطار حيث تقف فى استقبالنا جوقة عسكرية من جنود اليمن وأغلب القراء يعرفونهم ومن لغو الحديث أن أتحدث عن انعدام الاحذية والغريب أن الشعب كله يرتدى أحذية أو صنادل ، والحفاء يكاد يكون قاصرا على القوات المسلحة . وبعد أن اديت التحية العسكرية تقدمنا من نائب حاكم الحديدة والحديدة لها أمير هو ولى العهد سمو الامير البدر بن احمد بن يحيى حميد الدين وله نائب هو

السيد احمد باشا ، جده نال الرتبة من تركيا وبمضى الزمن تحولت من رتبة الى لقب واضيف الى اسم العائلة .. ونائب الحاكم هو القاضى عبد السلام الحداد سكرتير خاص ولى العهد وهو الذى ترأس بعثة الشرف التى استقبلت سفراء صاحبة الجلالة الصحافة ! ويبدو عبد السلام الحداد فى حوالى العشرين من عمره ولكنى علمت بعد ذلك انه فى السادسة والعشرين تلوح عليه علائم ذكاء مكبوت .. ورغم ما يبدو عليه من ملامح صغر السن الا انك تلمس دلائل الانحدار السريع نحو الشيخوخة ، ينظر الينا فى انبهار شديد .. وقد تولى هو الاشراف على اقامتنا فى قصر الضيافة وفشلت جميع محاولاتنا فى اقناعه بأن يشاركنا الطعام واختلفنا فى تفسير ذلك ولعل أكثر التفسيرات سطحية هى تلك التى زعمت انه يخشى أن يخطىء فى البروتوكول . رغم أنه من موظفى الخارجية اليمنية واخبث التفسيرات هى التى زعمت انه يخشى اتهامه بتبديد الاموال الاميرية فالحق اننا عشنا فى كرم حاتمى وضيافة عربية نادرة ودار الضيافة تضارع أفخم « مضيفة » يمتلكها عمدة من الطبقة الوسطى فى الصعيد بها سراير جريد عليها مراتب نظيفة وأنيقة بها دورة مياه بها بانيو ودش ومياه دائمة فى الحنفية متصلة رأسا بالبحر الاحمر والمحيط الهندى يقيم فيها بصفة مستمرة حرس « ملوكى » وهى الدار الجديدة أما الدار القديمة للضيافة فيسكنها الخبراء .

والقاضى عبد السلام .. والقاضى هذا لقب فى اليمن لطبقة الحكام . متزوج وله ابن وابنة .. خطر لى أن اسأله لماذا تعتدى بريطانيا على اليمن وفوجئت به يعتدل ويدفع بيده عمامته حتى تغطى حاجبيه ثم يخطب كمن يلقى قطعة محفوظات « حب الاستعمار والاستغلال والنفوذ والسيطرة والطمع فى البترول .. ثم يعض على

شفته حتى ينفجر منها الدم وهى حالة شائعة هناك وربما كانت مرضا لا أعرفه وليس من الخير أن أعبر عن جهلى وأقول انه بيوريا وربما كان شيئا من هذه الامراض التى تتوارث او تكتسب بفضل الزهد أو سوء التغذية . ويكمل القاضى الحداد « ولان اليمن تمردت كذلك على حلف بغداد واتبعت الدول العربية المتحررة » وأشفقت عليه من السياسة فسألته عن هواياته فى وقت الفراغ وهمس اللعين « شمسان » ـ وسأقدمه لكم سريعا ـ « كتابة التقارير » ولكن القاضى لم يسمع لحسن الحظ وقال « لعب الشطرنج وقراءة الادب وهو معجب بطه حسين واحسان عبد القدوس رغم انف كل ما يقال فى معركة الادب الهادف فى مصر ـ وفى الحديدة شطرنج واحد فى منزل الحاكم والطاولة لم تصل بعد ولكن هناك الكوتشينة وليس فيها مسرح ولا سينما ... واندفعنا فى حديث طويل عن مصر وروى أيضا كيف جزع الناس فى بلدته « بيت الفقيه » عندما سكتت القاهرة وكيف أقامت قبيلة الزرانيق الافراح هناك عند ما عاد الصوت الحبيب صوت العرب ـ وتضحك عيناه وهو يقول .. « سأرسل أولادى رأسا الى القاهرة » وتحس بالحسرة تنهش قلبه وهو يقول : « لقد كنت مرشحا لبعثة الى الازهر ولكن وفاة والدى حالت دون ذلك .. » وفى عتاب يكمل « لماذا لا ترسلون الينا كتبا ؟ .. » وأحس اننا مسئولون عن توفير مكان فى مدارسنا بعد خمس سنوات لطالب وطالبة من اليمن هما ابن وبنت القاضى عبد السلام وسيكون علينا تدبير اساتذة يؤمنون بالقومية العربية ويفهمون رسالتها ويعرفون كل شىء عن تاريخ اليمن امجاد شعبها وجرائم المستعمرين والمستبدين وفظائع الحكم التركى ثم البريطانى .. اساتذة يعرفون كيف يتحدثون الى الجيل الجديد عن ماضيه بكل امجاده وعن حاضره بكل امكانياته

وعن مستقبله بكل انتصاراته يوم تفدو اليمن عضوا عاملا سعيدا مزدهرا فى العالم العربى .. مسئولون عن سد الاحتياج الثقافى فى اليمن واختيار ما يكتب وما يرسل .. ان كل ما يأتى من مصر مقدس صادق يفيد فى نظر هذه الشعوب الشقيقة التى ننظر لنا نظرتها الى الاخ الاكبر وواجبنا أن نحافظ على هذه الثقة ان علينا أن نبعث بثقافة تبنى القومية العربية ، علينا أن نسد الفراغ فى عقول أبناء عبد السلام الحداد والفراغ فى مكتبه قصر الضيافة بالحديدة والا فستملأه مؤسسة فرنكلين واليونسكو ومن ثم يخلق الفراغ الاكبر الذى يتعطش ايزنهاور الى ملئه !

ومن المطار الى قصر الضيافة ركبنا العربات وهى خليط لا بأس به من السيارات عربة جيب أو عربات لست أذكر وسيارة كبيرة سوداء لا بأس بها لولا أن السيارات ليست كالخمر تزداد جودة كلما تقدمت بها السنين وان كانت تزداد حدة ورقة . .وركبت الجيب أنا وبعض الرفاق .. ورحب بنا السائق واشتكى لنا من البعثة الصحفية التى سبقتنا بأيام فعلى حد قوله كانوا فى ضيافة الامام عند ما حدث العدوان على اليمن ذهبوا الى البيضا حيث انفجرت القذائف حولهم ورغم ذلك .. ويتملكه الحماس فيترك عجلة القيادة ويلتفت الينا بكل جسمه صائحا بيديه ووجهه « ومع كدا يبرقون لصحفهم .. ما فى غارات !! » ونهدىء من روعه .. وقد تملكنا نحن الهلع مؤكدين أننا قد جئنا لنشر الحقيقة ، وينشرح السائق اليمنى ويبتسم فى اعزاز وهو يقول : « ما لنا غير مصر .. أم العروبة .. لما رموا الارسال ما سمعنا صوت العرب ٢٤ ساعة وامتنع الناس عن الطعام والشراب كأنهم دفنوا أعز الاصحاب ...» ويندفع يروى

قصة البدو فى اعالى الجبال الذين يشترون راديو البطارية ويطلبون من البائع أن يضبط مؤشره على صوت العرب ويبقونه هكذا والى الابد .. وكيف عاشوا هذه الاربع والعشرين ساعة ينظرون فى أسى وهلع لصوت العرب الصامت .. ترى ماذا كانوا يظنون أنه قد حدث فى القاهرة !! وانقبض قلبى بينما ترجمت زوجة الامريكى خبر بعثة الصحافة وانتاب القلق المستر « وين » وراح يسأل عن أنباء المناقشة والقدر الذى حصلوا عليه من الانباء بينما عكف فشنفسكى على تسجيل ايمان العرب بحكومة مصر الوطنية .. ووصلنا فى دقائق دار الضيافة وأهم شخصية فى دار الضيافة هى « شمسان » يبدو فى السابعة عشر من عمره وأغلب الظن أنه كذلك تبدو عليه أعراض سوء التغذية يفخر بأنه تربية مصرية اعنى اشتغل منذ صغره مع المصريين .. قضى عاما فى السجن فى انقلاب سنة ٤٨ ولا أجد وقتا لاحسب لك سنه فى ذلك الحين ولكنى مصر على كلامى هذا حتى ولو تبين انه لم يكن قد ولد بعد فى هذا التاريخ فالعدالة اليمنية لا يعجزها شىء . وشمسان يتحدث عن مصر فى هيام العاشقين وهو على استعداد لارتكاب أى فعل فى العالم ليقضى اسبوعا فى القاهرة ، قامت بيننا صداقة وطيدة عندما أبلغته بعض اسماء يمنية فى القاهرة وروما وفوجئت به مرة يقول بعض عبارات روسية مثل : « صباح الخير » « تفضل اكل » وسألت فشنفسكى دهشا من اين عرف ذلك .. وفى براءة الطفل قال البلشفى : « لا أدرى أين تعلمها » ولكن شمسان اخبرنى أن زوجة الطبيب الروسى تعطيهم دروسا فى اللغة الروسية ومن يدرى ربما يصبح شمسان هذا سفيرا لليمن فى روسيا يوما ما ولا خوف عليه من اعتناق الشيوعية اذا ما تعلم الروسية ولكنى حملتها لفشنفسكى الذى أراد أن يثبت براءته

الصحفية على ورددتها له مضاعفة كما سأخبركم ...

وما أن وصلنا وتجرعنا القهوة اليمنى وهى بلا نزاع أسوأ قهوة فى العالم لانهم كما قيل لنا يصنعونها من قشر البن . واليمنيون الاذكياء لا يحبون القهوة ولا يشربونها ولكنهم يصرون على اكرام الضيوف بها ومن غير المعقول ان نزور اليمن السعيدة ولا نصيب من قهوتها .. وهل يصدقنا الناس فى القاهرة ان قلنا اننا زرنا اليمن ولم نتجرع على الاقل نصف فراسلة بن والفراسلة عشرة كيلوجرام كما ستعلم ... شربنا بن مر وبن حلو ..

ثم عقد مؤتمر صحفى عاجل برئاسة السيد حسن بن ابراهيم نائب وزير الخارجية ووفقا لقواعد البروتوكول فالسيد حسن بن ابراهيم هو رئيس الهيئة الدبلوماسية فى اليمن باعتبار أن وزير الخارجية هو سمو ولى العهد .. والسيد حسن بن ابراهيم أما ولى من أولياء الله أو رجل صاحب فراسة كفراسة عمر بن الخطاب عند ما صاح يا حارثة الجبل ومن استرعى الذئب ظلم .

فبعد أن ألقى البيان التقليدى عن تطور العدوان البريطانى وكنا قد سمعناه فى القاهرة من السيد عبد الرحمن أبو طالب وسمعناه فى جدة من احمد الشامى ونشره أكثر من واحد منا قبل سفرنا باعتباره سبقا صحفيا . ثم انتقل الى الحديث عن الاحداث الاخيرة وأبلغنا ان البعثة التى سبقتنا وتتكون من انجليز وأمريكى واحد هو غريم المستر « وين ويللى » قد زارت جبهة القتال وأسعدها الحظ بحصول معركة وقت الزيارة وبادر مطمئنا أنه يرجو لنا حظا سعيدا كحظ السابقين ونشهد معركة . وتعشمنا خيرا فان كنا قد فهمنا من ذلك أنه لا توجد حرب بالمعنى المفهوم ولكنها اعتداءات بريطانية

كعبث اسرائيل عند الحدود قبل وصول الاسلحة الروسية ، ولكننا وعلى الاخص المستر وين علقنا آمالنا كلهـا فى أن ترتكب بريطانيـا عدوانا وأغلب الظن ان غالبيتنا كانت تتمنى فى أعماقها لو كان عدوانا وحشيا تسيل فيه الدماء أنهارا وتتطاير فيه القنابل وتدك وتحرق القرى علنا ننفرد بسبق صحفى خطير .. وقد تحققت نبوءة الرجل وشهدنا عدوانا ..

وأفهمنا انه طبقا لقواعد البروتوكول يجب ان يطير السيد احمد الشامى المرافق الدبلوماسى للبعثة الى السخنة حيث يعرض تقريرا على المسامع الملكية ومن ثم يقر البرنامج وينفذ فور اعتماده من القصر الملكى .. وأفهمنا انها مسألة «ساعات ليس الا» وقد فضل غالبيتنا البقاء بالبدل حتى تأتى الاشارة بالتوجه الى الجبهـة أو الى القصر الملكى لمقابلة جلالة الامام .

ولتسليتنا استدعيت لنا فرقة موسيقية لا استطيع أن أقـول انها متجولة . كما لا يمكننى أن أجزم انها فرقة رسمية .. حسبى أن اقدمها لكم : « كانوا ثلاثة .. عجوز بذقن صغيرة وعين واحـدة يرتدى جلبابا من الدمور .. حافى القدمين .. يرتدى جاكتة طليانية مكتوب عليها عبارات بحروف لاتينية يضع فى حزامه سيفين وقلم حبر ماركة « بلاتيجنم » ويحمل طبلة ويرسل شعره على طريقـة جنوب الجزيرة وزميله أكبر منه سنا وأكثر مرحا ومعهما صـبى صغير شديدالنحول يرتدى جلبابا وجاكتة ويتمنطق بحزام وينتعل حذاء رثا .. شديد الحماس شديد الذكاء يغنى الرجلان فى تخاذل ويأس وهما يهزان رأسيهما بينما يبذل الصبى جهدا غريبا فى رفع صوته حتى يغطى طبقة زميليـه وحتى خشينا عليه أن ينفجـر له عرق وعرفت أن قائد الجوقة اسمه « على على مقبل » من قبيلة حاشد

وهى احدى قبيلتين حاشد وبكيل اللتان استعان بهما الامام الحالى فى اخماد ثورة ٤٨ ٠

وهو ليس مطربا فقط بل « مال أسلى » أى كاتب عمومى أو عرضحالجى كما نقول نحن ويبدو أنه ظن اننى أرغب فى كتابة عريضة فقد تحدث عن أسعار خيالية يتقاضاها ثمنا لعرائضه عند ما سألته عن دخله !

ولما كانت جميع محاولاتنا لتفهم الكلمات قد باءت بالفشل فقد فضلنا تتبع اللحن مما سبب لنا ارهاقا شنيعا ٠٠ وقال أحدهم أن هذا اللحن يحتاج فى تتبعه الى قصاص أثر ٠٠٠

ودعينا الى الغذاء حيث كانت هناك كميات ضخمة من اللحوم والسمك وخليط من أطعمة محفوظة أحضرت معنا فى الطائرة من القاهرة فجدة ثم الحديدة ٠٠ وأوصى أحدهم باستعمال الليمون بكثرة وخاصة على الماء وحرص المستر وين على حضور المائدة بالثياب الكاملة بما فيها « البيجون » واشهد انه لم يتنازل عن ذلك قط ، بعكس صاحبنا الروسى فقد انتهى به الامر الى أن أصبح يجلس على المائدة بالبيجاما الامريكية اياها !!

وبعد الغذاء شربنا بن مر وبن حلو وشايا ثقيلا ثم شربات وبيبسى كولا وليموناده وأملاحا فوارة كل هذا واحمد الشامى مختف تماما !٠

وكلنا استبشار انه فى الحضرة الملكية ولن يلبث أن يعود بالبرنامج أو « البروجرام » كما قال فخامة نائب وزير الخارجية ٠ والتوقيت العربى خداع « يلخبط » كل احساساتك بالزمن ، فالساعة الثالثة ظهرا تجدها الثامنة ولا تدرى طبعا صباحا أم مساء ! وهكذا يفقد اليوم أوله ونهايته وتضيع معالم الزمن ورغم ذلك فقد ادركنا أن مسألة ساعات هذه قد طالت وتجاوزت الا وليس ٠٠ وانتحيت

« بشمسان » ركنا وسألته عن حقيقة اجراءات البروتوكول وطفر ذعر غريزى من عينيه وتلفت حوله وهو يهمس ليس قبل أيام .

● طليانى

وحتى يعتمد البروجرام اقترح أن نطوف معا فى الحديدة ونقوم ببعض زيارات قصيرة ونسيت أن أخبركم أن المستر وين ويللى قد زار اليمن قبل ذلك ولكن عن طريق آخر غير طريق الحديدة واعلنت المسز ويللى انها تعرف أسم طبيب ايطالى هنا ويمكن زيارته واقترح الروسى أن يذهب معهما ومن ثم كان من الضرورى ان أكون انا الرابع وانطلقنا نبحث عن طبيب ايطالى اسمه فردريكو فعثرنا على آخر اسمه « باليتينيرى »

وللايطاليين علاقات قديمة باليمن منذ أن كانت ايطاليا بالحبشة والصومال وعندما استأذنا فى مقابلة باليتينيرى كان عنده القنصل الايطالى فى ارتريا والذى يقوم برحلة فى اليمن يتفقد فيها احوال الرعايا الايطاليين واستقبلتنا زوجته ..واحدةمن هذا الجنس الابيض الذى غزا القارة السوداء عند ما استحال عليه العيش فى القارة السيدة . تدخن السجائر وتسرف فى الشراب باعتدال ! وانتحت بنا ركنا حتى يفرغ زوجها من الحديث مع القنصل وآخرين .

ويبدو أن نقاشا حادا كان يدور هناك فى الركن الآخر من الغرفة والايطاليون كماهو معروف يجيدون الصراخ ..وأحسست بالضيق لعل مبعثه وجود القنصل .. وأنا لا أفهم حرفا من حديثهم ، وهذه

الحلقة من الايطاليين تتناقش آمنة فى دار مغلقة بالحديدة حيث لايدرى أحد .. فيم يتحدثون ..؟

ومن حقنا ان نستريب .. لقد بعث لنا الغرب أطباء وقساوسة ومصلحين وعلماء آثار .. ثم كشف التاريخ أنهم جميعا ليسوا الا جواسيس ولصوصا وقتلة ورسل أستعمار . لقد كتم الغرب أنفاسنا ثلاثة قرون ومنعنا من النمو والتقدم وكانت آداته الاولى هى هؤلاء الرواد الذين يحملون زوجاتهم وأطفالهم ويأتون للمعيش بيننا ونمنحهم كل شيء فيسلبوننا كل شيء .. لقد عمل فى المخابرات البريطانية قساوسة وعلماء وأدباء ومستشرقون ومخترعون وفلاسفة وفى كل مكان حلت به المخابرات البريطانية كانت المؤامرات والمجاعات والمذابح وحكم الحديد والنار ثم تدمير كل شيء وسلب الشعوب . وأخطر من ذلك كله الامساك بها والتاريخ يعدو .. وكل هذه الجرائم ساهم فيها الاطباء والعلماء والفلاسفة ورجال الدين .. ايديهم جميعا تلطخت بدم الشعوب .. دمنا نحن .. أفليس من حقى ونحن نخوض معركتنا الاخيرة ان أحس بالقلق كلما رأيت بقايا هؤلاء الذين كتبوا ولو سطرا فى تاريخنا الدموى .. كلما رأيتهم يجتمعون ويتهامسون أو حتى يصرخون دون أن أفهم صراخهم .. وفى بلاد نائية عزلاء ...

وجاءت مسز « بالتينيرى » بزجاجة ويسكى وأحضرت الكؤوس .. واضطررت رغما عنى الى الاعتذار وطلب لى فشنفسكى فى وقار كوبا من الليمون .. وفى وقار مماثل اقترحت عليهما شرب نخب الصداقة السوفيتية ـ الامريكية وشرب الامريكى والروسى النخب فى حرارة صادقة بعيدة عن نفاق الدبلوماسية وأتيكيت الحرب الباردة

وأنهى القنصل حديثه وهبوا صائحين « أوكى » ثم انصرفوا وجاءنا الدكتور ..

وهو طبيب مستشفى الحديدة، وباليمن ٢٠ طبيبا أيطاليا وطبيبان من روسيا وآخران من فرنسا ! ولكنها لا زالت تفتقر الى المرضين ومساعدى الاطباء ويشهد الطبيب الايطالى أن الشعب اليمنى شديد الذكاء لديه استعداد كبير للتعلم . ويذهب جميع الاطفال الى المدارس وقد لاحظنا ارتفاع نسبة الذين يعرفون القراءة والكتابة انها على حد قول المسئولين لا تقل عن ٧٠ ٪ بين الذكور والاناث ويمكن أن تصل فى خلال سنوات الى مائة فى المائة !.. ويبدى « باليتينيرى » دهشته من حب الشعب للنظافة ! ويعلل ذلك بكثرة اغتسالهم وفقا لتعاليم الدين ولكنهم، كما يقول ، لايجدون ولا يعرفون كيف ينظفون أنفسهم . والحق أن الشعب اليمنى شعب نظيف وخاصة فى الداخل وبالجبال والبيوت مبنية من الحجر وليس من الطين لوفرة الحجارة وهى دائما شديدة البياض تدهشك بنظافتها ، والشعب اليمنى يشعرك منذ اللحظة الاولى أنه شعب متحضر له تاريخ يضرب بجذوره فى الارض .. لانه شعب زراعى وتجارى متماسك ، ورغم الفقر والبؤس والجوع الذى لا مثيل له فى العالم الا انك تحس أن هذا الشعب يستطيع ، وفى سنوات ، أن يحتل مكانا مرموقا تحت الشمس !

• أمة عريقة

وأحسب أن شوقك قد طال الى لقاء الشعب اليمنى ، وخير مكان يمكن أن تلتقى فيه مع الشعب اليمنى هو السوق .. واذا استطعت أن تنفذ من هذه القشرة العطنة التى يقف عندها الكثيرون ممن اختطفوا آراءهم عن اليمن اختطافا .. اذا نفذت من قشرة البدائية التى ينسجها الاستعمار حول اليمن ، فستصل الى القلب الحى الى أمة ذات تاريخ عريق ، وشعب ذكى طموح ، يدرك امكانياته ويحس أنه غنى ، اليمن هى البلد العربى الوحيد فى شبه الجزيرة الذى يمكن أن تقوم فيه صناعة جبارة الى جانب زراعة مستقرة وأرض اليمن من أخصب

الاراضى ٠٠ ربما فى العالم ، واختلاف تضاريسها من جبال عالية الى سهول فى مستوى سطح البحر يسمح بزراعة أنواع متباينة من المحاصيل

والبعثة الامريكية التى يرأسها مواطن عربى سابقا والتى تقيم فى اليمن تؤكد أن اليمن أغنى دول الشرق الاوسط فى البترول ، والمعادن يمكنك أن تراها بالعين المجردة فى الجبال ٠٠ والشعب مستقر متماسك له تاريخ حضارى ، وتعداده ليس بالصغير بصرف النظر عما اذا كان أربعة ملايين كما تقول المعارضة أو سبعة كما تقرر الحكومة ٠٠٠

واذا كانت وجوه اليمنيين تحمل كلها احساسا بأن شيئا ما يجب أن يحدث فانهم فى الحديدة يعرفون هذا الشىء ٠٠ انهم يريدون ميناء ٠٠ اصلاح الميناء

ومشروع اصلاح الميناء مدروس منذ سنوات ، وهناك مفاوضات مع أكثر من شركة من دول الشرق والغرب ، لقد خنقت بريطانيا اليمن عن طريق سيطرتها على ميناء عدن ولما انهار ميناء الحديدة أصبحت اليمن تعيش تحت رحمة السلطات البريطانية فى عدن ، والانجليز لا يتورعون طبعا عن استخدام أى سلاح ٠٠٠ بل ويغرمون بالاسلحة الدنيئة بصفة خاصة !

وكثيرا ما منعت بريطانيا تصريف منتجات اليمن عن طريق عدن أو منعت وصول الضروريات من عدن الى داخل المملكة المتوكلية اليمنية، ولو أصلح ميناء الحديدة فسينهار الحصار البريطانى الى حد بعيد وسيؤثر ذلك على مركز عدن التجارى ٠٠٠ المنفذ الوحيد حاليا لجنوب الجزيرة، وستنمو تجارة اليمن عشرة أضعاف واذا « فتحت » عينيك وتخيلت قيام خط بحرى مباشر بين القصير والسويس والحديدة ، ومن الحديدة يصدر الفحم اليمنى الى القصير حيث ينقل بالسكة الحديد الى مصانع الصلب المصرية وتعود بدورها آلات ومصانع للنهضة اليمنية ومن السويس تخرج البواخر المصرية واليمنية تحمل سمادا ومنسوجات

وتعود محملة بالبن والمعادن وينمو مستقبل زاهر لدول البحر الاحمر وتقوم وحدتنا العربية على أسس راسخة من التعاون الاقتصادى ٠ وليس غريبا أن يحدثك كل الناس فى الحديدة عن اصلاح الميناء ٠٠٠ ان هذا الثغر يطلب وبألحاح ٠٠٠ ميناء ٠٠!

وسوق الحديدة شديد الشبه بالخيمية كما هو الحال فى جدة ، والبضائع كلها من صنع الخارج ما عدا بعض الحاصلات الزراعية ويختلف سوق الحديدة عن جدة فى أن المستهلكين فى جدة هم أساسا الاجانب والعكس تماما فى الحديدة التى لا يزورها الكثيرون والبضائع فى جدة غالبيتها من أمريكا وسويسرا أما فى الحديدة فمن الهند « البضائع الشعبية » والحرائر من اليابان ومن بريطانيا « الادوات الصناعية » ونسبة عاليه جدا من عدن ، وعند ما تنتقل من جدة الى الحديدة يمكنك أن تلمس المعنى التقليدى لمناطق النفوذ عند ما يختفى « الشسستر فيلد » وتظهر « الثلاث خمسات » وينتهى التعامل بالريال ويبدأ الحديث عن الشلن ! والبضائع الامريكية التى تزاحم الهواء فى شوارع جدة ، تكاد تختفى تماما فى سوق الحديدة ٠

والتاجر اليمنى كادح ثورى له مطالب ولديه الكثير من الوقت والفراغ ليفكر فى الضرائب والنظم السياسية والاجتماعية والمشاريع الانتاجية واذا فكر انما يفكر على مستوى قومى ٠ والتاجر اليمنى مرتبط بقضية شعبه وأمته يحس أنه لا يمكن ان يرتفع الا بدفعه من أسفل أى بارتفاع عام فى مستوى المعيشة والطاقة الانتاجية أما التاجر السعودى فيحس أنه يرتفع بقوة من أعلى كمن شد الى بالون وهو كلما طار بعيدا عن الارض بعد عن أمته وشعبه لذا فهو يحس دائما بضرورة اضافة المزيد من الوقود فى البالون كى يستمر فى التحليق ٠٠ بينما لا يعينه كثيرا مستوى الدخل العام أو الطاقة الانتاجية على مستوى الامة ٠٠٠

والمليونير السعودى يفتح بنكا فى القاهرة ويبنى عمارات بالدقى

حتى تصبح هناك محطة أوتوبيس اسمها السعودية · ولكن « الجبالى » مليونير اليمن يفتح محالج وورش سيارات فى بلاده ويساهم فى بناء أكبر مصنع نسيج فى الجزيرة العربية ··

والتاجر اليمنى شديد الذكاء ويجب أن يكون كذلك حتى يمكنه أن يتدبر هذه الحسابات الشديدة التعقيد ، فهو يتسلم الاقمشة من عدن باليادرة ويبيعها بالذراع ويدفع ثمنها شلنات وروبيات وجنيهات استرلينى ثم يعود فيجمع هذا الثمن ريالات يمنيه وبوكشات · والريال اليمنى أسطورة وحده ·· انه قطعة من الفضة بدائية الصنع على وجهه صورة امرأة لعلها المرأة الوحيدة فى اليمن التى يسمح لها بدخول مجالس الرجال سافرة الوجه وعذرها أنها « مارى تريزا »(!!) وكتب عليها تاريخ الصك وهو ١٧٨٠

ولا يحتاج الامر لعبقرية اقتصادية كى نفهم استحالة قيام نهضة اقتصادية حقيقية تستند الى عملة بطل صكها منذ قرنين من الزمان ! ونحن نسميه الريال اليمنى ، واليمنيون يسمونه الريال الفرنسى وهو نمساوى وفقا لما يحمله من نقوش ! ومهما تكن حقيقة جنسيته فهو لا يمثل الا عملة داخلية بكل ما تعنيه الكلمة ويشبه الى حد بعيد البطاقات التى استخدمت فى أوروبا فى فترات الثورات الاجتماعيه · والعملة المستخدمة فى العمليات التجارية الكبيرة مع الخارج هى الاسترلينى والروبية الهندى · والجنيه المصرى يساوى أربعة ريالات ولكن وجودنا فى الحديدة سبب انخفاضا فى سعره ! فقد استبدلناه بثلاثة ريالات وخمس بوكشات « والبوكشة » عملة يمنية تساوى واحدا على أربعين من الريال اليمنى، وأنصحك اذا ما أردت أن تزور سوق الحديدة أن تأخذ معك جنيهات ماركة أبو الهول فسعرها أفضل من الجنيهات ماركة الملك فاروق ! حتى لقد احتاج الامر الى شهادة بعض الخبراء لكى يقبل الصيارفة فى سوق الحديدة صرف الجنيه المصرى ماركة الملك المخلوع ! ·· ولا شك أن أية

نهضة اقتصادية فى اليمن تتطلب اصلاحا فى نظام العملة واصدار عملة عشرية جديدة وتعديلا شاملا فى نظام المقاييس والمكاييل وقبل كل شىء ٠٠ منح الثغر ميناء ٠٠ اصلاح ميناء الحديدة ٠٠!

وفى السوق قابلت«حسن صالح سابحة»٠٠خرج من اليمن فى سن الثالثة وعاش فى الحبشة خمسة عشر عاما ! ورغم ذلك فقد عاد منذ ثمانى سنوات عند ما سمع أن شركة أمريكيه قد تعاقدت على اصلاح الميناء ، وعند ما سألته لماذا عدت أجاب اجابة تختلط فيها المصلحة الشخصية بالاحساس الوطنى وراح يفتش عن الكلمات وهو يقول « الواحد لازم يخدم وطنه ، مهما يكون ما له قيمة غير فى بلاده ٠ ثم انطلق «لو قام مشروع الميناء حيكون فيه أشغال كتير وألحاله تتحسن»! وافتتح حسن صالح دكانا وراح ينتظر ، انه يتلقى البضائع الآن عن طريق عدن ، والاستيراد برا ممنوع وهو لا يدفع الا العشور ، وتلك ميزة لتجار الحديدة فالمدن الداخلية تدفع الزكاة والفردة ٠

ولا ينتظر «حسن صالح» وحده بل كثيرا مايخفف عنه مرارة الانتظار « على عبد الرحمن المشرقى » ويعمل حاليا فى الانشاءات وقد عاد هو الآخر من الحجاز عند ما سمع نبأ اصلاح الميناء ، ويتقاضى ريالا فى اليوم ، ويستأجر منزلا بثلاثة ريالات فى الشهر ، ويشترى ماء بثلاثة ويقول أنه يتكلف ثلاثة أرباع الريال يوميا ثمنا للطعام ٠٠٠ ولا يمكن أن يقتصر حديثهما على الميناء فالليالى الطويلة تحب السمر والحديث ذو شجون وعند ما يأتى سكرتير النائب فان السهرة تكتمل ويصبح الحديث أكثر خطورة وأكثر اثارة للاهتمام ٠٠ وعند ما سأل فشنفسكى التاجر هل تسمعون صوت العرب أجابه اليمنى القادم من الحبشة « ان لصوت العرب مكانه فى اليمن أكبر من مكانته فى مصر » وأجاب عن سؤال آخر عن هدف صوت العرب بأنه تحرير العالم العربى وتوحيده ٠

وفى متجر بن يملكه عبد الرحمن الزبيدى قال « راجح » الذى يبلغ من العمر ستين عاما أن زراعة البن قد تقدمت بفضل توفر المياه ، وهو متجر متواضع يصدر حوالى أربعين فراسلة فى الاسبوع وسعر الفراسلة تسليم الحديدة حوالى أربعين ريالا يمنيا والفراسلة تساوى عشرة كيلو جرام واذا كنت من عشاق القهوة فأخرج ورقة وقلما أو تعرف «بحسيب» «جرب حظك» وأجر عملية تحويل الفرسل الى كيلو جرامات ثم حولها الى أقق وحول الاقق بدورها الى أرطال ثم حول الريالات النمساوى الى جنيهات مصرية ماركة « أبو الهول » الاصلى ! وفى النهاية تستطيع أن تحسب الفرق بين ما يحققه فنجان القهوة من ربح فى سميراميس وما يحققه فى مقهى الحديدة الرئيسى حيث يجلس رجال الحرس الملكى يدخنون الشيشة وحيث تباع القهوة بسعر بوكشة ونصف بوكشة وكوب الشاى ببوكشتين !

ولكن ليس لدينا وقت الآن للجلوس على المقهى بل علينا أن نستأجر تاكسى من الموقف ونتم جولتنا فى المدينة • وقادنا صبى يمنى الى موقف التاكسى •• وهناك وجدنا حوالى أربعين « باسكليت » أودراجة حتى يتفضل طه حسين ويقرأ كتابى •• وفى ثبات منقطع النظير تصايح أصحاب الدراجات « بتبغى تاكسى » أى هل تريد تاكسى ؟ •• وتلفت أنا والروسى نبحث عن التاكسيات فلم نجد الا هذا الحمار الحديد ! ولم يكن هناك مفر من قبوله وركب صاحبى واحدة ساقها بنفسه وهو فى قمة السعادة ربما لم يركب عجلة منذ عشرين عاما ، وكنت أنا أكثر سعادة لاننى لم أركب عجلة فى حياتى قط ، وفشلت كل محاولات أخوتى فى اغرائى بتعلم ركوب العجل فى الصغر حتى ينفعنى فى الكبر وكان من الضرورى اذن أن أستعين بسائق التاكسى •

ولما كان الصحفى الاشتراكى مولعا بالمصانع فقد ذهبنا الى مصبغة، وفشنفسكى يحيى العمال فى شوق وحب حقيقى ، وفى مصبغة محمد

على معجم تحدثنا مع ناصر سعيد مدير المصبغة ان صحت التسميةوهو يقوم بصباغة ١٢٠ فوطة فى اليوم ويشرف على اربعه وعشرين عاملا و «ناصر سعيد» لم يخرج الا فى زيارة قصيرة الى عدن، والثقافة التى تقدم لناصر وأمثاله فى هذه الرقعة من الارض ليست الا أسوأ أنواع السموم التى ينتجها الاستعمار

ورغم ذلك ففى رأس ناصر نتائج مهما كانت أسبابها ومقدماتها الا أنها تعنى انتهاء عصر السيطرة الفكرية للغرب ٠

سأله فشنفسكى ماذا تعرف عن روسيا فأجاب«روسيا لاتستعمر أى دولة »

وأخفى فشنفسكى سروره فى تواضع وطلب أن أسأله : « كيف عرف ذلك » ولدهشتى البالغة قال الرجل اليمنى :

ـ من المجر ٠٠ وأكمل : « كان المجر يحتله الانجليز والفرنسيون وطردت روسيا الانجليز والفرنسيين وسلمته لاهله !

وبصرف النظر عن القيمة التاريخية لهذه المعلومات فان اختياره للمجر بالذات ، يثبت بما لا يدع مجالا للشك صفة السفه على منفقى أموال دافعى الضرائب فى أمريكا وفرنسا وبريطانيا وممولى الصهيونية العالمية ، الذين اختاروا المجر ليكيلوا فيها لروسيا ضربة قاصمة لسمعتها كدولة « غير استعمارية »

ورغم ذلك فشلت كل هذه الملايين فى اقناع المواطن اليمنى الذى يعيش محاصرا بجميع محطات الاذاعة الغربية ، وأصوات أمريكاوالذى لم يقرأ فى حياته صحيفة أو كتابا من دوله شيوعيه ، ومن المؤكد أن فشنفسكى هو أول رجل أحمر يقابله ، ورغم ذلك فهو مقتنع تمام الاقتناع أن روسيا ليست دولة استعمارية والدليل على ذلك المجر ٠٠ نعم ! والمجر بالذات ! والاسم لطوبة والفعل لامشير ٠٠٠٠

حظوظ يا أمشير ٠٠٠ ! أليس من الافضل أن تنفق « طوبة المتحدة

الامريكية » أموالها فيما يعود بالفائدة على الشعوب !...

وسألت ناصر سعيد ... وماذا تعرف عن أمركا ..؟

ومرة ثانية أجاب فى بساطته المذهلة :

« اذا كان ربنا يفنيهم يكون أحسن ! »

واذا كان حديث ناصر سعيد أكثر اغاظة لامريكا فان حديث «رسام المليكى » أكثر تعبيرا عن الوعى المدهش فى اليمن ..

انه من جبل « كوكبان » ويعمل حاليا مراقبا فى العمارات الحكومية ورأيه فى المشاكل الدوليه :

- ان مصر شرفت العروبة فى معركة بور سعيد والقناة ..
- وأن روسيا والصين الشعبية معنا
- بريطانيا تريد استعمار اليمن ولكن الامام يأبى التنازل عن شبر واحد من الارض
- الانجليز لا يريدون أن يروا عربيا واحدا على قيد الحياة
- أما عن أمريكا فهى تريد أن تحل محل بريطانيا وفرنسا .. أو تثير حربا عالمية
- أما مشروع ايزنهاور فهو طعنة للعرب ويجب أن يرفضوه..وأخيرا روسيا تحب السلام !

والاخ اليمنى لم يقابل فى حياته ملحقا عسكريا مصريا ولا مهيجا سوفييتيا ... ولكن ماذا نفعل لخيبة أمريكا فى كل مكان ...

أما عن الوضع الداخلى فهو يلخصه فى ضرورة بناء صناعة يمنية .. ومصادر ثقافة « رسام المليكى » ليست سوى راديو صغير ...

• مع السوفييت

قال أحدهم أن بالمدينة خبراء سوفيت وكان فشنفسكى قد«غطس» مدة ساعة ثم عاد زاعما أنه كان فى نزهة على شاطىء البحر ! ونفى علمه بوجود روس فى المدينة وحملت « الكاميرا » ونزلت وأنا أعده

بالتفصيلات خلال نصف ساعة ! وهز كتفيه فى براءة القديسيين ..

لم يكلفنى الامر كثيراً .. عند أول جندى وقفت سائلا فى ثقة ... أين ينزل الخبراء ؟

وأجاب الرجل فى أدب « فى دار الضيافة القديم .. تفضل يا حضرة » ...

وتفضل الحضرة طبعا .. وهناك فتح لى روس دهشون ، وبابتسامة سعيدة أهتف أنا باشتياق :

« هالللو ... أنتم الخبراء السوفيت ، أنا صحفى مصرى صديق فشنفسكى ... نعم ! .. الصحفى الروسى ! نعم نعم ؟ ... كان هنا اليوم ! .. أعرف ذلك .. لقد نصحنى أن أزوركم ... هل بضايقكم ذلك ؟ »

وبالطبع .. لا يضايقهم ذلك .. ومن عند الروس عرفت مكان الالمان ... وبعد نصف ساعة كان فشنفسكى يجلس أمامى وهو يعض على شفتيه فى أدب وأنا أتلو على مسامعه نص المعلومات التى حصلت عليها ...

فى المدينة روسيان : اسمهما: «**مارك الكسندرش سوكولوف وفيو**» مهمتهما كما قالا هى بناء مصنع أسمنت فى الجبل ومن المرجح أنهما يدرسان كذلك مشروع الميناء وقد حضرا الى اليمن بناء على الاتفاقيات التى أنجزها الامير البدر ولى العهد أثناء زيارته لروسيا ، وقد صرح لى مارك سوكولوف أن زعماء بلاده قد صرحوا فى المؤتمر العشرين للحزب الشيوعى ، ان لكل بلد طريقه الخاص وخاصة بلاد الشرق ولم يدر بذهننا قط أن اليمن يمكن أن تتحول الى دولة شيوعية ولقد قابلنا الامام وهو رجل متواضع لا تحيط به مظاهر الارستقراطية والاقطاع. وصلة الاتحاد السوفييتى باليمن قديمة. ان الكهرباء قد دخلت الحديدة فى ١٩٢٨ على يد سينمائى روسى اسمه « شنيدروف » كان

يقوم بتصوير فيلم عن اليمن ٠٠ وطلب منه حاكم الحديدة وولى عهد اليمن فى ذلك الحين ان يقوم ببناء ماكينة انارة ٠٠٠ ورغم أن الرجل سينمائى فقد نجح فى تأدية المهمة الغريبة ٠٠ واليمن هى أول دولة عربية تتبادل التمثيل الدبلوماسى مع الاتحاد السوفييتى ٠٠٠

وفى الحديدة ١٨ مهندسا من ألمانيا الديمقراطية وقعوا اتفاقا يوم ٢٥ ديسمبر لانشاء صناعات خفيفة ، مصايد أسماك ، وأطعمة محفوظة ومصنعا للخزف ٠٠ ويبحثون أمر اقامة محطة كهربائية وهم يتبعون مؤسسة قامت بأعمال مماثلة فى سوريا ومصر والصين والهند وألبانيا! وشروط العقد خرافية ! ٠٠ يقومون بالدراسات ويبنون المصنع دون أن تدفع حكومة اليمن مليما واحدا وبعد ذلك يبيعون المصانع لليمن ٠ ويتقاضون ثمنها على أقساط وفى شكل بضائع من انتاج المصانع ! والخبراء الذين يقيمون عند شاطىء البحر الاحمر فى الحديدة وينامون على السراير المصنوعة من النخيل لا يتقاضون أجورا من الحكومة اليمنية

وينص العقد الذهبى على أن تعلم حكومة ألمانيا الديمقراطية على نفقتها خمسة طلاب يمنيين سنويا على ادارة وتشغيل هذه المصانع وتتكفل بجميع نفقات ذهابهم واقامتهم وعودتهم وتكون ملزمة قبل الطرف الاول ٠٠ وهو حكومة صاحب الجلالة الامام أحمد بن يحيى حميد الدين امام المملكة المتوكلية اليمنية ٠٠٠٠ تكون ملزمة أى حكومة المانيا الديموقراطية بقبول أى عدد آخر من الطلبة اليمنيين يتعلمون على نفقتهم ٠٠٠ ولا يلتزم الطرف الاول الا بشرط واحد ٠٠ هو قبول هذا الكنز والسماح بفتحه فى أرض اليمن ! ٠٠

ويضيف **رينشارد دوجلاس** رئيس البعثة الالمانية والقادم من « ليبزج » ان شعارنا فى التجارة الخارجية هو التعامل فى البضائع فقط ، وليس غريبا اذن أن يجيب الدكتور صالح بن مصطفى من جمهورية تركستان السوفيتية والذى يعمل الآن طبيبا فى مستشفى

الحديدة ويسكن فى غرفة صغيرة بها سريران من جريد وبضع مقاعد ومنضدة ويضع ثيابه فى حقائبه مشاركا مستشرقا روسيا آخر يضع كتابا عن اللغة العربية فى اليمن أجاب الطبيب السوفيتى ذو الاسم « العربى جدا ... » عن سؤالى عن شعور الاهالى نحوهم بأنه عظيم جدا وأضاف :

« اننا نريد أن نحبهم فلماذا لا يصادقوننا »

• الحرب الباردة حول القات

وليس الذى أثارنى من الطبيب الروسى اسمه الغريب ولا وداعته وهو جالس على السرير الخشبى بالجلابية والطاقية كأى بك من بكوات الاتراك الصالحين !.. بل حقيقة بسيطة كنت أحسبنى قد تعلمتها ، ولكنه نبهنى اليها فى عنف ... وعرفت أن أمامنا سنوات طوال من التجارب ... لقد خطر لى أن أسأله سؤالا عابرا عن رأيه فى « القات» بوصفه طبيبا ... وأحسب ان الوقت قد حان لتقديم « القات » أخطر وأهم شخصية فى اليمن .. والقات نبات أخضر تؤكل أوراقه أو بمعنى أصح تمضغ وتمص عصارته ، وحتى يتم الامتصاص فان متعاطى القات يكون كره بلسانه ولعابه من الاوراق ويدسها بين الاسنان والوجنه ويختزنها هناك حتى يتم امتصاص عصارتها تماما ..وتحتاج هذه العملية الى الاعتكاف فى مكان هادىء والجلوس بدون عمل لوقت قد يستغرق ساعات وبالطبع لا يستحب الحديث أو المناقشة ومن ثم تسمى هذه العملية « بالتخزين » .. ويمكن أن تثق أن ٦٠ ٪ من الشعب اليمنى « مخزن » فى الفترة ما بين الثانية عشر ظهرا والرابعة مساء ! وشجرة القات وردت الى اليمن من الحبشة .. والفكرة التى فى العالم كله أن « القات » آفة اليمن تماما كما كان الافيون فى الصين أو الحشيش فى لبنان ويستشهدون على ذلك بانتشاره الواسع مع تدهور

النظام الاجتماعي وارتفاع أسعاره حتى أصبح التخزين يكلف عشرة أضعاف نفقات الطعام !..

وتكونت فى اليمن جمعية سرية تسمى جماعة محاربة القات ، وقد لاحظت أن جميع العمال الذين يشتغلون لا يتعاطون القات وينفرون منه ، والجيل الجديد بأجمعه ساخط على القات ، يهاجمه بعنف..ولا أظن أن هذا الجيل الذى يتعلم فى المدارس ويسكن فى بيوت تنار بالكهرباء ، ويستطيع الراديو وصوت العرب ومن يدرى ربما السينما قريبا ان تملأ وقت فراغهم ، لا أظن أن هذا الجيل سيندفع فى تعاطى القات اندفاع الجيل القديم..وأهم من ذلك كله أن معركة البعث التى تجتاح الشعب اليمنى كله، ستحرق أوراق القات .. هكذا كنت أفكر عند ما سألت الطبيب السوفيتى .. وفاجأنى بقوله .. « أن الدعاية الغربية تهاجم القات منذ سنوات طويلة ولكن هل قامت أية هيئة طبية بتحليله ؟ لقد كشفت على عدد كبير من الذين يتعاطونه ولاحظت أنهم لا يصابون بأمراض الضغط وتصلب الشرايين .. ربما كان به مواد طبية ورغم ذلك فأنا لا أستطيع أن أجزم بشىء وقد أرسلت عينات منه الى معامل كمياوية فى الاتحاد السوفيتى لتحليله والبحث فيما اذا كان يمكن تحضير بعض الادوية منه .. لماذا لم يقم الانجليز بهذا العمل ؟ وأضاف فى اصرار .. يجب ان نفحص هذا النبات بصفة علمية قبل أن نقرر محاربته ثم نكتب لكى يقرأ الشعب ويقتنع بضرره ... وأعتقد أن الحكومة اليمنية تؤيد هذا البحث .

وذهلت ! لاننى تقبلت شيئا كحقيقة مسلم بها دون أن أسأل عن تفاصيلها ومصادرها وأسسها .. وكنت أحسبنى قد تخليت عن هذا المنهج فى التفكير منذ سنوات .. ولكنه درس من الطبيب البدين .. والذى استطاع رغم أصله التركى أن يكون ذا عقلية علمية !

وقد دفعنى ذلك الى أن أسأل طبيبا من الغرب ... الدكتور « فلسانى » الطليانى وقد اعترف أنه لم يحلل القات .. ويبدو .. أنه ليس مخدرا كالافيون أو الحشيش ولكنه يرى استحالة القول بأن القات ليس خطرا .. ويعتقد أن به مادة منبهة كالقهوة والشاى وقال بقدر ما وسعنى فهم عربيته المكسرة .. وهو يصر على تعلم العربية فينا .. أن به بنزدرين وسبلمين .. ! والله أعلم ..!

واذا نحينا الحرب الباردة بين الشرق والغرب جانبا فالحقيقة ان رأى الدكتور صالح بن مصطفى أكثر اغراء والرأى الفاصل للتحليل الذى سيصل من موسكو .

وفى نفس الوقت فمهما كانت نتيجة هذا التحليل فان الضرر الاكبر والحقيقى للقات هو استقطاع هذه الساعات الطويلة من وقت شعب يواجه مشاكل التحرر والبناء ...

● مستشفى

وأحسب أن الحديث عن الاطباء لا يكتمل الا بزيارة المستشفى ، ومستشفى الحديدة مستعد لاستقبال جميع الحالات واجراء شتى العمليات الجراحية ومزود بجهازين لتكييف الهواء ، به سبعة أطباء خمسة من الروس وطبيبان من ايطاليا ، وممرضة يونانية وتمورجيان من أرتريا وبه حوالى ٢٠٠ سرير ، والمدير العام يمنى كما هو الحال فى جميع المصالح والمشروعات اليمنية واسمه السيد حسن المقدمى ، والعلاج والاقامة مجانا طبعا .. وبأجزخانة الحديدة عشرة آلاف صندوق رابديوسيلين .. وأظن أنه البنسلين الايطالى .. والله أعلم .. بكل صندوق ١٠ حقن ... كل حقنة ٤٠ر٠٠٠ وحدة ، والمريض يتناول فى الفطار « قرص خمير ولبن » وفى الظهر رز وخمير ولحم ..وموز .. وفى المساء لبن زبادى وكل هذا مجانا .. حفظ الله

الامام كما يقول فلاح من قبيلة بكيل قرب صنعاء وقد فاجأه المرض فى الطريق الى الحديدة ونقل الى المستشفى ...

● حصة عربى

وفى طريق عودتنا الى دار الضيافة لا مانع من التوقف قليلا بالمدرسة ـ وفى الحديدة مدرستان بهما ٦٠٠ طالب وحوالى ٣٠ كتابا لتعليم القراءة .. والكتابة .. والتعليم مجانا بالطبع فى مدارس الحكومة ويتلقى حوالى ١٨٥ طالبا اعانات شهرية من خزينة الامام .. حوالى ٣ ريالات لكل طالب شهريا .. فضلا عن الطعام والكسوة .. واذا دخلنا السنة الثانية فصل ثالث فاننا سنأخذ حصة عربى .. وعلى السبورة تاريخ اليوم ٢ رجب ١٣٧٦ ـ ١ ـ كانون ثان ١٩٥٧ .. والدرس هو اسناد الفعل المعتل الآخر الناقص الى واو الجماعة .. وياء المخاطبة ، ولاأمل طبعا فى تعلم هذه الاعجوبة ! .. أعنى اسناد هذا الفعل القبيح الذى جمع كل السيئات من اعتلال الآخر الى النقص والذى لا يختار أن يسند الا الى واو الجماعة وياء المخاطبة .. حقا انه فعل ناقص ..!

لنتركه حتى يكتمل ويكفينا اذن أن نستخلص شيئا من الامثلة التى يقدمها الاستاذ حسن الكنجوتى .. والمكتوبة على السبورة .. وهى:

١ ـ المصلح سعى فى خير بلاده

٢ ـ المصلح يسعى فى خير بلاده

٣ ـ اسع يا رجل فى خير بلادك ..

أما حصة الصحة فقد كتب الطلبة اليمنيون فى كراساتهم « العين عضو البصر .. بها يمكن أن نرى الاشياء القريبة والبعيدة وهو عضو لطيف لذلك يجب الاعتناء به والمحافظة على نظافته .. وعدم تعريضه لعلاج يضر به الا بعد تقرير الطبيب .. »

وهكذا تلحق اليمن بقافلة الشعوب المتحضرة ويتعلم الجيل الجديد

أول قاعدة فى الطب الحديث بل قل فى كافة المهن وأعنى ألا تضر نفسك الا بمعرفة المختص ..! سواء كان الطبيب أو المحامى أو ميكانيكى السيارات أو مفتش الضرائب .

وفى عجلة نشد على يد السيد عبد الرحمن جيوتى مدير ادارة الكهرباء والمسئول عن انارة الحديدة من أربعة مولدات قوتها ١٢٠٠ حصان .. طاقتها ٩٠٠ كيلو وات ويباع الكيلو بـ ١٢ بوكشة للمنازل التى بها عدادات وعددها ٣٠٠ أما باقى المنازل والدكاكين التى لم تستطع الحصول على عدادات فتحاسب على أساس ريالين ونصف عن اللمبة فى الشهر ...

وبالادارة ١٨ عاملا يمنيا ومهندس ايطالى .. ومرتب المدير اليمنى ٢٧٠ ريالا تمساويا أى أكثر من مائة جنيه مصرى .. وهو مرتب كبير بغير شك .. وتعمل المولدات بالديزل .

● شاعر من اليمن

وليس لدينا الوقت كى نطيل الزيارة فى شتى مرافق الحديدة فقد أبلغنا أحدهم ان هناك شائعات تقول بوجود السيد احمد الشامى فى المدينة .. ومعنى ذلك ان « البروجرام » قد اعتمد .. واننا فى طريقنا الى الجبهة

وعدنا سريعا لنعقد اجتماعا عاجلا لتدبير شئون الرحلة .. وانتظرنا وصول « الشامى » أو حتى اشارة منه بالخبر السعيد .. ولكن الانتظار طال .. ودعينا الى الغداء ثم تجرعنا البن المر .. والبن الحلو .. والشاى الثقيل .. والشاى المصرى .. وشربات الورد .. الخ

وفجأة .. اقترح أحدهم ان نبعث نحن للشامى نستطلع الانباء .. ألسنا صحفيين ؟ ان عشنا أو متنا ..؟

وبعد مناقشة حادة حول انسجام مثل هذه الخطوة مع البروتوكول اليمنى قررنا المجازفة وأوفدنا الرسول ..

وعاد بعد ساعات ليعلن أن « الشامى » لم يغادر الحديدة قط وأنه لا يزال فى انتظار الاذن الملكى بالمثول فى الحضرة الامامية لعرض « البروجرام » حتى يمكن اعتماده ... وكانت ضربة قاضية . ففى هذه الايام كان العالم ومصر بالذات يفور بالاحداث والانباء .. وها نحن أحد عشر صحفيا يدبجون « الريبورتاجات » عن مدينة الحديدة ! أو كما يقول المستر وين وهو يكتم غيظه نجمع معلومات لدائرة معارف عن فندق الكندرة ودار الضيافة أو يقترح علينا مؤتمر صحفى مع « شمسان » ..! ولما كانت المصائب لا تأتى بالفرد بدا، فقد أذاع راديو القاهرة أن الملك احمد بن يحيى حميد الدين قد عقد أول مؤتمر صحفى فى تاريخ اليمن حضره الصحفيون الاجانب ومراسل الوكالة الامريكية المنافسة ... وكان المصاب أكبر من ان نعزى فيه المستر « وين » ... تصوروا أمريكيا يسمع أن آخر قد أتى شيئا على وزن « افعل » والامريكيون لا يهمهم شىء قدر اهتمامهم بأن يكون الاول أو الآخر أو الاسرع أو الاسوأ فما بالك وهو موجود فى داخل اليمن ويسبقه الامريكى الآخر فى أول مؤتمر صحفى لملك اليمن ..!

ولم يكن من العسير بعد ذلك أن نتفق على صيغة برقية مضمونها:

« بعثة الصحافة أسيرة كرم ضيافتكم الحاتمى .. تلتمس الافراج عنها ، واذا تعذر مقابلتكم ، فالى الجبهة ، أو نعود أدراجنا غير آسفين قبل أن يفصلنا السادة الذين يدفعون الاجر »

وبعد أن ترجمت هذه البرقية الى العبارات الدبلوماسية المناسبة، أرسلت مع توصية شديدة الى « دار السلك » وهى مكتب التلغراف .. ولما كانت الخطوات التالية هى وصول البرقية الى « السخنة » حيث يقيم الامام ثم وصول الرد ـ فى حالة التوفيق ـ بالاذن بسفر الشامى ومن ثم يعود الشامى بعد اعتماد البروجرام ويبدأ تنفيذه « فورا » .. فقد رأيت أن أقضى السهرة خارج دار الضيافة .

وهناك التقيت بما قد يحسبه البعض أعجوبة ولكنه ليس أكثر من تعبير عن البعث الذى أعلنه عبد الناصر ٠٠ **القومية العربية فى كل مكان ٠٠٠**

لقد ضرب الاستعمار نطاقا حديديا بين شعوب المستعمرات ومنع عنها كل ثقافة وتقدم وأبقاها تحت المستوى الآدمى حتى لا تفكر الا فى ضروريات العجماوات ورغم ذلك فقد تحطمت الاسوار وأفلت الوعى ينشر بذور فى كل مكان ٠ ثم كانت السنوات الاخيرة وسيطرت القوى الوطنية فى مصر وسوريا على أجهزة الدعاية التى عاشت طوال عمرها فى خدمة الخيانة والاستعمار وكان أخطر هذه الاجهزة هو الراديو الذى لا يمكن ان تعترضه سدود ولا يخضع لتفتيش ٠ وفى أعالى الجبال وفى الصحارى والوديان يتجمع العرب حول هذا الصندوق العجيب الذى من سوء حظ الاستعمار أنه يعمل بالبطارية أيضا ! بل اخترع الروس راديو يعمل بالجاز ٠

ويأتى الصوت من القاهرة ويسمع سكان الجزيرة حيث بريطانيا هى السيد الذى لا يقهر منذ كان الآباء وآباء الآباء ٠٠٠ يسمعون بآذانهم صوتا عربيا يكيل الشتائم لبريطانيا العظمى علانية ! ورغم ذلك لا تناله أساطيل ولا تزمجر من حوله بوارج ٠٠! ويسمعون عن انسحاب قوات صاحبة الجلالة مرغمة ٠٠ ويسمعون عن عرب فى الجانب الغربى من أرضنا يحملون السلاح ويسببون لفرنسا رعبا وجنونا ويلحقون بها من الهزائم ما يفوق أساطير الاميرة ذات الهمة وسيف بن ذى يزن ٠٠٠

اذا٠٠فلم يعد فى العالم أسياد ! والحفاة العراة الجياع يمكنهم ان يسمعوا العالم صوتهم ٠٠ لقد دوى « صوت العرب » وتدمدم الارض

وتتزلزل الاوهام التى تضخمت كالجبال وتدب الجياة فى الجمر الملتهب ٠٠ **فيستحيل نارا لا تبقى ولا تذر** ٠٠٠

ولكن اسمعوا « **محمد داغفول** » من قبيلة عبوس القطيع رأغلب الظن أنها تحريف لاسم عبس وأرجح أن داغفول هذا من نسل عنترة العبسى فهو أسود شديد السواد مفتول الذراعين عارى الجسد الا من خرقة يلفها حول وسطه اذا ابتسم لمعت أسنان صفراء تضرب الخضرة حول جذورها ٠٠ لا يعرف القراءة ولا الكتابة ٠٠ لم ير السينما فى حياته ولا القطار قط ٠٠ ولكنه شاعر ٠٠ نعم انه ينظم الشعر ولكنه لا يتغزل أساسا فى عبلة ٠٠ ربما ينظم شيئا فى الحبيبة المجهولة ولكنه يتكسب بشعره كما كان يفعل أى شاعر من أسلافه فى جنوب الجزيرة منذ زمن وجيز قد لا يتجاوز قرونا عشرة ! ولكن لشد ماتغيرت الحياة ٠٠ كان أسلافه يمدحون رئيس القبيلة ٠٠ فيأمر لهم بالنياق أو ينتظرون زيارة سعيدة للوالى ٠٠ أو ربما الخليفة نفسه ٠٠ ويتقدم الشاعر يحمل حظه فى أبياته وقد يأمر له الخليفة بجارية وقرية بخراجها وقد يأمر له بسيف ونطع ٠٠

لشد ما تغيرت الامور ٠٠٠ لقد زار الامام الحديدة عقب الحريق الذى وقع بها وبعث « داغفول » بمكتوب الى أمير المؤمنين يعلن فيه استعداده لنظم قصيدة أمام الامام فى وصف الحريق فرد عليه الامام بمكتوب شريف نصه « أفادكم الله ٠٠ بين » وتقدم للتبيان وتلا القصيدة وأمر له أمير المؤمنين بعشرة من ريالات مارى تريزا ٠٠٠

وليس الناس وحدهم هم الذين يتغيرون ٠٠٠ لقد تغير الشعر نفسه ٠٠٠ بغير حاجة الى معارك الادب الهادف والفن للحياة ٠٠٠ والجديد والقديم ٠٠ لقد اختفت الابيات القديمة وتغير نظام القافية وهو يتبع أحيانا طريقة الموال المصرى ، ومخمسات الاندلس أحيانا أخرى ٠٠٠ وشعر داغفول حافل بالاخطاء النحوية واللغوية وفى

القصيدة ألفاظ هندية مثل « لك » بمعنى مليون وألفاظ انجليزية مثل وير بمعنى سلك٠٠ ومن الطريف أن « وير » تأتى كلازمة للقافية وغالبية الالفاظ غير مستعملة بين المدنيين وتحتاج الى تفسير من خبير فى لهجات البدو ٠٠٠ ورغم كل ذلك استطاع هذا الانسان ان يلم بدقائق السياسة العربية ويعرف موليه وايدن وبن جوريون ونورى السعيد ويعرف أبرز شخصيات مصر جمال عبد الناصر واحمدسعيد!

لقد أسمعنى الشاعر داغفول ثلاث قصائد ، حور هو فى ألفاظها العربية ، وسجلتها أنا بكل الاخطاء السماعية ، ورغم ذلك فهى قادرة على أن تهز كل عربى من أعماقه وتثبت أن الدم قد تدفق فى الشريان العربى ونبضت كل عروق القومية العربية بالحياة وقد رأيت الخبط كاملا نابضا بالحياة وداغفول ينشد ، وأيقنت ان معركة القومية العربية لم تعد قضية المثقفين فى جامعات القاهرة ولا حلفا بين الملوك والرؤساء العرب، بل أصبحت قضية حياة أو موت كل عربى فى أعالى جبال صابر وصحراء تهامة ومياه الخليج٠٠قضية ايمان لم يعرفه العرب منذ أيام الهبة الاولى ٠٠٠

ان داغفول الذى لم يخرج من الحديدة أبدا ، ينظم الشعر فى قضية العروبة ومعركة الباراشوت فى بور سعيد ٠

واليمنيون الذين ربما لم يروا وجها مصريا قط يطربون لهذه القصائد ويتغنون بها ويمنحون داغفول ريالاتهم وبوكشاتهم ليستمر فى الانشاد والشدو

وقبل أن نتلمس طرف الخيط تعالوا نسمع الشاعر الذى تجرى فى عروقه دماء حبشية وربما لم يبرح أجداده جنوب الجزيرة منذ قرون!

يا من تجيبوا السائل ٠٠٠

نجنا من القبح ٠٠

وشر كل القلاقل ٠٠

كلب من البحر ينبح ..

من « بنط » لندن داخل (ربما تعنى بورت أى ميناء لندن)

فى كل بندر « يقزح » (أى يعيث فسادا)

قال فيه القائل ..

لا بد له من يطمع

بقول كل أوائل

ان الانجليز سائل

ولا بكلمة وضح

قام الامام الزاهر

خطب خطبة صح

وجمع رجال قبائل

بأسها فى العدو « وقح » (أى وقع لانهم يستبدلون العين بحاء)

شجاع .. فارس .. نائل

بأسها فى العدو قح

سافح بكل جمايل

كبحر موجها يسفح

جمال شعبه مائل

على عدوه « يوقح » (يوقع)

كل الانجليز يستاهل

لا بد ما تتطلع

من حول كل جزاير

ما عاد معاك « لا مبرح » (أى ليس أمامك مفر)

ولا التقى فى ساحل

على العراقيب يسلح
عليه رسول عزرائيل

وحط فيهم يدبح

ولا مخلى طائر

من الخائنين « الفظع » (اقرأها حاء أو عين كما تشاء)

والحرب فيهم ثائر

على اليهود القبح
يهود بنى اسرائيل

***

جمال صاحب تدبير

صاحب سياسة وأدب

شجاع فارس جبير

حرام ما « يتخبب » (أى لا يحب الحرام)

ومعاه صحاب التكبير

كم من صناديد وصب

صغير يلحق كبير

كل على الموت « أطنب » (أى تكالب)

تكيل أبو الدنيا كيل (لا أفهم بالضبط وفشلت كل محاولاتى فى الفهم منه)

الانجليز لما هجم

عبد الحكيم عامر « طنب » (أى اندفع)

يجول بألفين بندير

وبين المعارك تهب

شاجع وليس له مثيل

وأحمد سعيد الاطيب

ذاك الشجاع المهيل

بين « الكفريه » خطب (أى الكفار)

خطبة لا لها مثيل

ايدن منها اغتضب (أى غضب)

دمعه من عينه يسيل

الكذب من عنده « مصطب » (أى منصب)

من معدن الكذب كثير

ايدن فلا « يتعيب » (أى لا يعاب)

ولا يهمه التخجيل

بغل يحمل العنب

وعدله صاحب « شكيل » (أى على شاكلته)

أبو لجامين كبير

من راسه الى الذنب

لا كنت لك عين تخيل

يوم على الكفر « أطنب » (أى أصاب)

والبراشوت فى نزيل

تكاثبوا بالاردب (أى وثبوا فى كثرة)

فى المظلات يا خبير

كم من عدو « اتقلب » (قتل)

طعن ٠٠ ضرب ونحير

ألفين فى ٠٠ حمير

لحم « الكفريا » اختضب (جمع كافر)

وخلوا الدماء يسيل

كوادى وله شعب ....

وايدن بالجيش يغير ..

اقبل بذاك المركب ..

وفيه قليل وقنابل ...

مرصوفة كما القبب

أتى لهم « جهد » صغير (جهد معناها صبى)

عضد السنة حرب (أى لبس لباس الحرب)

لا دقن ولا شنب

ذاك الشجاع الاصيل (يقصد الفدائيين)

ركب طائرة وصب

ومعاه قنبلة كبير

وحط صاد المركب

وقتل جند كبير

الفين فى .. حمير

وجمال فيهم يضرب

« وطا » كطير أبابيل (أى عمل كطير أبابيل)

حرق شجرهم « ونقب » (أى قطع)

كما جرى لاهل الفيل

أهل الشرك والغضب

جمال على القوم أمير

فوق الكفر يشجب

لعب بهم لعب الكير

كم من باخرة قلب

ونفر الكفر نفير

من شاهد الموت هرب

ذا « محشوم » وذاك قتيل (مطعون)

وذا هنا يتقلب ..

فى معرك الموت « دحير » (مدحور)

والانجليز يتهرب

ألفين فى .. حمير

ما يدريش من انهى جنب يدير

وعساكره تتأدب

لا بد له من « تطيير » (أى خروج)

من كل بقعة وصلب

انجليز هيا سير

« خببت » نفسك يا كلب (أى أوقعت نفسك)

ارفع جيوشك واسحب

وارفع بلاك كتير

لو تطرح خزنتين دهب

من فوق تلتميت « كفيل » (أى ضامن)

فى باب الكنار لا تقرب (أى قنال السويس)

ما دام لك عمر طويل

فازوا كلها العرب

بنصر الواحد القدير

وصلوا بطه الاطيب

طه المصطفى النوير

وما حاط بعلمك يا رب

وعدد الكتب والتفسير

تحمى سيد العرب ٠

***

أما عن نورى السعيد فهو يقول :

يا نورى السعيد

ان قلت شئ أعاتبك

مانتش حق العتاب

وان فعلت بصاحبك

مثلك ذو العيب عاب

لو تطرح تلتميت « لك » (أى مليون)

من فوق تلتميت « رحيت » (جمل)

يا ذا الباب ما يتفك لك

يا ذا الحزى خزيت

سخيف ما أصلبك

علمت يا نت غويت

وضيعت فرض مذهبك

***

وأحسب اننى لست بحاجة لان أتحدث عن الجمال فى قصيدة بور سعيد حسبك أن تتأمل هذه الصورة الشاعرية الجميلة ٠ ومراكب ايدن الجبارة تحمل قنابل كالقباب ولكن الفتى الصغير الامرد يندفع نحوها فيدمرها ويقهرها ٠

انها مصر الحديثة ·· مصر الشابة تقهر حلف الاطلنطى بكل جبروته وعتاده ···

لقد استطعنا أن نثير هذه المعانى وتلك الاحساسات فى قلب المواطن اليمنى الاسود العارى الجسد ·· واستطعنا أن نجعل معركة بور سعيد مادة للقصاصين على مقاهى الحديدة ·· انه بعث أمة من المحال أن تقهر

• فولكلور

وعز على أن أغادر الحديدة دون أن أحمل معى هدية من الفولكلور اليمنى للعزيز « رشدى صالح » ولعله يقبل قصة الفتى اليمنى بروايها « السيد على زملة » أشهر قصاص بالحديدة ، وهو نحيف أسمر يرتدى نظارة شمس ويأتى بحركات عنيفة تشنجية وهو يقص ، وسأروى القصة بألفاظه بقدر ما وسعنى التقاطها ···

« راجل يمنى ··· ولد شباب ، فقير لا يملك شىء ، أهله ضعاف ، قعد ذلك الولد ·· أخذ رخصة من أمه ·· يروح الغرب ·· وصل الى جيران فى سيارة آلى الحجاز ·· أربعة يوم دخل بابور مصرى ، أنا راجل أشتغل ، أصل آلباخرة ، ٣ أشهر نزل فى آلبلد ، تاجر من الهند عزمه قعد عند الهندى ساعة فلكية ، أعطاه كاس من المشروب راح العقل ، راح يمشى ، صدره مثل بابور بأربع مداخن ، الولد مر على البيت ، سكران ·· بنت آلوالى آنتظرت على آلولد ·· طلع على الاوده معها ، أخذت الكاس ، ضربها بالكاس ، اتعورت ، نزيف لغاية ما ماتت ، حملها ، ايش عملت ، أنا أشتكيك للشرطى وقت ما وقفوا بالجنازة ··· قالوا فين الميت ، قال من بيت التاجر ، دفنوا البنت ، آلوالى زار بنته ، لم يجدها ، بحث عنها ، قصاصين ٣ أيام المتكلم قال اسأل أهل المجنة (القرافة) الساعة أربعة بليل ويقول

جارية ·· ألقى القبض على التاجر ، جنازة ليلة الاحد ·· بنتك ماتت ما عرفت الطريق ·· اعترف ·· التاجر يستحق الاعـدام · ورفض أن يسلم الشاب اليمنى ·· أوصى أولاده بالفتى اليمنى ·· الولدسمع تلميذين بيقولوا حيشنقوا التاجر ·· دخل واعترف أمام الوالى بالقتل ·· الولد والتاجر بيتحلفوا قالوا الصدق ·· سكرته ·· افرج عنهم وأعطى اكرامية ··· »

***

وبعد فقد أكرمنـا الله أخـيرا ·· ووصـل السيـد الشامى يزف البشرى ··· وصول البرقية من « السخنة » وعلمنا أنه لا أمل فى وصول الطائرة فان كنا مصرين على انهاء الضيافة قبل تمام الاربعين يوما فيمكننا السفر بالسيارات الى حريب ·· وتعـالت الصيحات . « الى حريب ·· الى حريب ولو على ظهور الابل ·· »

وقد كان ··